إِتحافُ النُّسَّاكِ

فِي ذِكرِ مَواعِظِ ابنِ السَّمَّاكِ

اعْتَنى بِهِ وَجَمَعَهُ

د. مُحَمَّد مُختار الباقورِي

إتحاف النّساك

في ذكر مواعظ ابن السّماك

(ت١٨٣هـ)

د. محمد مختار الباقوري

بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي جعل في قصص الأولين عبرة للمعتبرين، وفي مواعظ الصالحين حياة لقلوب الغافلين، والصلاة والسلام علىٰ أعظم واعظ ومُذَكّر، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

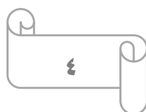
أما بعد:

فلما رأيت القلوب قد غلب عليها الران، وأنْسَتْها الدنيا لذةَ الإيمان، يممت شطر من نطق بالحكمة فهدىٰ، ووعظ الملوك فما اعتدىٰ.

فجمعت هذا الجزء المبارك في مواعظ ابن السماك، وهي مواعظ تنفذ إلىٰ الحنايا، وتجلو عن النفس الرزايا، فيا طالب الصفاء دونك هذا الرحيق المختوم، والمعدن المنظوم؛ ففيه دواء

الأدواء، وارتقاء الأولياء، وبشرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

أسأل الله أن يجعل في هذا الكتاب نفعًا لكاتبه وقارئه، وأن يحيي به قلوبنا إنه ولي ذلك، والقادر عليه.



مقدمة

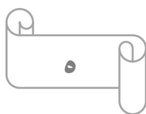
إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١] .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ، وخير الهدىٰ هدىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أحبتي في الله: إن الوعاظ كثيرون لكن القليل منهم من يؤثر بموعظته ويصيب في تذكرته، وقديما قالوا ليست النائحة الثكلىٰ كالمستأجرة.

قال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب؟

فقال: يا بني ليست النائحة الثكلىٰ كالنائحة المستأجرة[1].

فإن الواعظ الذي عاش مع موعظته واثرت فيه سهل عليه أن يؤثر في غيره.

فالمواعظ كالسياط تلهب القلوب فتنزل عليها لتوقظها من غفلتها ومن سباتها العميق.

ومن الوعاظ الذين لهم باع كبير في الوعظ بأسلوب يسيل رقة وعذوبة هو الإمام ابن السماك واعظ الرشيد.

بل إن الأديب الكبير/ علي الطنطاوي رحمه الله فضله في الوعظ علىٰ الحسن البصري[2].

---

(١) الزهد لأحمد صـ٢٨٨، وإحياء علوم الدين ٨/ ٧٩.

(٢) مقدمة علي الطنطاوي لكتاب المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي صـ١٧-١٨.

وقال الطنطاوي أيضا: "ابن السماك، هذا الرجل الذي تدل الفقرات القليلة التي رُوِيَت له علىٰ أنه أحد أفراد الدنيا في بلاغة القول وصفاء الأسلوب وعلوّ التفكير، ولم يفكر مع ذلك أحد في استقراء أخباره وتتبع آثاره "[١].

وقد استخرت الله تعالىٰ في جمع مواعظه وتتبعها من خلال كتب التراجم والتاريخ والأدب والزهد والرقائق؛ والذي دفعني إلىٰ جمع هذه المواعظ أنني لم أجد كتابا مستقلا جمع مواعظ ابن السماك، ووجدت بحثا كتبه الدكتور/ محمد شمس عُقاب، جزاه الله خيرا تحت عنوان "بنية الوعظ عند ابن السماك دراسة سياقية تحليلية" نشر في حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية يونيو ٢٠٢٠م.

---

(١) فصول في الثقافة والأدب صـ٢٣١ .

وبين يدي هذه المواعظ أقدم بترجمة لابن السماك ليست بالطويلة المملة ولا بالقصيرة المخلة؛ لكي نتعرف علىٰ هذا الواعظ الكبير ثم أتبعها بمواعظه العامة، ثم مواعظه الخاصة للرشيد وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم .

كتبه/ محمد مختار الباقوري

في مدينة مومباسا

يوم الجمعة ١٤ من المحرم ١٤٤٤هـ

الموافق ١٢ من أغسطس ٢٠٢٢م.

مصادر ترجمته وذكر مواعظه مرتبة على حسب وفاة مؤلفيها:

التاريخ الكبير للبخاري ١/ ١٠٦

الكنى والأسماء لمسلم ١/ ٦٠١

المعرفة والتاريخ للفسوي ٢/ ٦٧١

الصبر والثواب لابن أبي الدنيا صـ١٠١

تفسير التستري صـ١٨٦

الجرح والتعديل ١/ ٣٢٢، ٧/ ٢٩٠

الثقات لابن حبان ٩/ ٣٢

المؤتلف والمختلف للدارقطني ٣/ ١٣٤٤، ١٤٥٢

المؤتلف والمختلف لعبدالغني الأزدي ٢/ ٤٨٢

شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي٨/ ١٥٤٧

الاقتباس من القرآن الثعالبي صـ٢٥٨

اللطائف والظرائف صـ١٥

الحلية لأبي نعيم ٨/ ٢٠٣

زهر الآداب للحصري ٢/ ٦١٩

تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧/ ترجمة ٩١٦

الإكمال لابن ماكولا ٤/ ٣٥١

إحياء علوم الدين ٤/ ٤٩٨

ربيع الأبرار للزمخشري ١/ ٤٢٣ وهناك مواضع أخرىٰ من الكتاب ذكرتها في مواضعها عند عزو مواعظ ابن السماك في الهوامش.

والتذكرة الحمدونية لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي ابن حمدون ١/ ١٩١

الأنساب للسمعاني ٧/ ٢٠٣

والضعفاء والمتروكون لابن الجوزي ٣/ ٧١

القصاص والمذكرين لابن الجوزي صـ٢٥٣

المنتظم لابن الجوزي ٩/ ٨٦

صفة الصفوة ٢/ ١٠١

اللباب لابن الأثير ٢/ ١٣٥

مرآة الزمان ١٣/ ٥١

وفيات الأعيان ٤/ ٣٠١

العبر في خبر من غبر ١/ ٢٢١

المغني في الضعفاء للذهبي ٢/ ٥٩٣

تاريخ الإسلام ٤/ ٩٥٩

سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٢٨

ميزان الاعتدال ٣/ ٥٨٤

الوافي بالوفيات ٣/ ١٣١

البداية والنهاية ١٣/ ٦٢٢

القاموس المحيط صـ٩٤٣

تعجيل المنفعة ٢/ ١٨٢

لسان الميزان ٧/ ٢٠٥

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢/ ١١١

الثقات لابن قطلوبغا ٨/ ٣٤٢

التاريخ المعتبر في أنباء من غبر لمجير الدين العليمي ٣/ ١٧٢

شذرات الذهب ٢/ ٣٧٦

البحور الزاخرة للسفاريني ١/ ٣٠

تاج العروس ٢٧/ ٢١٠

موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية لمحمد عبدالرحمن المغراوي ٣/ ٧٧

وهناك مصادر أخرىٰ رجعت إليها سوف تجدها في ثنايا الكتاب.

ترجمة ابن السماك

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه وشهرته:

هو محمد بن صَبيح[1] العجلي، مولاهم الكوفي الواعظ الزاهد.

كنيته: أبو العباس

شهرته: ابن السّماك – بفتح السين وتشديد الميم – نسبة إلىٰ بيع السمك، وصيده كما نص علىٰ ذلك السمعاني وابن الأثير، وابن خلكان[2] .

---

(١) بفتح الصاد كما نص عليه:

عبد الغني الأزدي في المؤتلف والمختلف ٢/ ٤٨٢ .

وابن حجر في تعجيل المنفعة صـ٣٦٤.

وضُبط في القاموس المحيط بضم الصاد ١/ ٩٤٣، والصواب ما نص عليه الأزدي وابن حجر.

(٢) الإكمال لابن ماكولا ٤/ ٣٥١، والأنساب ٧/ ٢٠٣، واللباب ٢/ ١٣٥، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٠٢.

وخالف الفيروزآبادي ووافقه الزبيدي نسبة إلىٰ صانع السمْك بسكون الميم وهو السقف [1].

مولده:

لم تحدد لنا كتب التراجم تاريخ مولده.

تنبيه:

وقد اشتهر بابن السماك جماعة منهم:

١- محمد بن بُندار السماك الجَرْجائي، صحب أحمد[2].

٢- أبو عمرو عثمان بن أحمد بن عبد الله بن يزيد الدقاق المعروف بـ ابن السماك البَغْدادِي (ت٣٤٤هـ)

(١) القاموس المحيط ١/ ٩٤٣، وقال الزبيدي في تاج العروس ٢٧/ ٢١٠: والسمك: السقف، أو هو من أعلىٰ البيت إلىٰ أسفله. وقال الليث: السمك: القامة من كل شيء يقال: بعير طويل السمك.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي صـ٢٦٧، وإكمال الإكمال لابن نقطة ٣/ ٢١٢.

روىٰ عن: محمد بن عبيد الله ابن المنادي، والحسن بن مكرم، ويحيىٰ بن أبي طالب، وحنبل بن إسحاق، وغيرهم من هذه الطبقة.

روىٰ عنه الدارقطني، وابن شاهين، وابن المنذر القاضي، وغيرهم.

قال الخطيب: وكان ثقة ثبتا ، وقال الذهبي: الشيخ، الإمام، المحدث، المكثر، الصادق، مسند العراق [(١)].

٣- أحمد بن الحسين بن أحمد أبو الحسين الواعظ المعروف بابن السماك (ت ٤٢٤ هـ)

كان له في جامع المنصور وفي جامع المهدي مجلس وعظ يتكلم فيه علىٰ طريقة أهل التصوف، وحدث عن: جعفر بن

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٠.

محمد الخلدي، والحسن بن رشيق المصري، وأبي بكر ابن المقري الأصبهاني، وغيرهم.

قال الخطيب: كتبت عنه شيئا يسيرا[1].

شيوخه:

سمع ابن السماك: هشام بن عروة، وإسماعيل بن أبي خالد، وسليمان الأعمش، وعائذ بن نسير، ويزيد بن أبي زياد، والسري ابن يحيىٰ، والعوام بن حوشب، وسفيان الثوري [2].

تلاميذه:

روىٰ عن ابن السماك: الحسين بن علي الجعفي، وعمر بن حفص بن غياث، ويحيىٰ بن يحيىٰ النيسابوري، وعبد الله بن

(١) ينظر: تاريخ بغداد ٥/ ١٧٧.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٤٤.

صالح العجلي، والعلاء بن عمرو الحنفي، ويحيىٰ بن أبي المقابري، وأحمد بن حنبل [١].

أراء العلماء فيه جرحا وتعديلا:

قال ابن نمير: صدوق، وقال مرة: ليس حديثه بشئ [٢].

وذكره ابنُ حِبَّان في الثقات وقال: مستقيم الحديث، وكان يعظ الناس في مجلسه [٣].

وقال الحاكم عن الدارقطني: لا بأس به [٤].

خلاصة حاله: صدوق لا بأس به.

ثناء العلماء عليه:

(١) ينظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.

(٢) الجرح والتعديل ٧/ ٢٩٠، وتاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧، وميزان الاعتدال ٣/ ٥٨٤، ولسان الميزان ٧/ ٢٠٥.

(٣) الثقات ٩/ ٣٢.

(٤) لسان الميزان ٧/ ٢٠٥.

قال أبو نعيم في الحلية: ومنهم زايد النساك وصائد الفتاك وناصب الشباك أبو العباس محمد بن صبيح حدد الشأن وشدد العيان فأوضح البيان وأفصح اللسان[١].

وقال السمعاني: كان زاهدا عابدا حسن الكلام في الوعظ صدوقا[٢].

وقال ابن الجوزي: وله مواعظ حسان، ومقامات عند الرشيد[٣].

وقال الذهبي في العبر: كان كبير القدر. دخل علىٰ الرشيد فوعظه وخوفه، وفي السير قال: الزاهد، القدوة، سيد الوعاظ[٤].

---

(١) الحلية ٨/ ٢٠٣، وهذا النص جاء هكذا في المطبوع زايد النساك، ولعل الصواب زاهد النساك.

(٢) الأنساب ٧/ ٢٠٣.

(٣) المنتظم ٩/ ٨٦.

(٤) العبر في خير من غبر ١/ ٢٢١ ، والسير ٨/ ٣٢٨.

وفاته:

توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة، رحمه الله تعالىٰ.

ولما حضرته الوفاة، قال: اللهم إنك تعلم أني لم أجلس مجلسا للناس إلا لأحببك إلي خلقك، وأحبب خلقك إليك[1].

وذكر ابن الجوزي أنه لما حضرته الوفاة قال: اللهم إني وإن كنت أعصيك لقد كنت أحب فيك من يطيعك[2].

وذكر البيهقي في الشعب بإسناده أن سبب وفاته أنه كان بالكوفة، فبدأ في بعض مجالسه من ذكر النار فبكىٰ وأبكىٰ، ووعظ وذكر، وجرىٰ مجلس حسن جميل"

فلما كان في المجلس الثاني رفعت إليه رقعة كان فيها:

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ١٠٢.

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء من السقام لذي الضنى   كيما يصح به وأنت سقيم

وأراك تلقح بالرشاد عقولنا   نصحا وأنت من الرشاد عديم

فمرض من ذلك مرضا شديدا وتوفي منه رحمه الله[1].

(١) شعب الإيمان ٣/ ٣٢٥.

مواعظ ابن السماك

١- قال ابن السماك: أعقل الناس محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن[١].

٢- وقال: "كأن المعمور من هذه الدنيا قد ارتحل، وكأن المغفول من الآخرة قد أناخ بأهله، فثم فضع الهموم"[٢].

٣- وقال: هب الدنيا كلها في يديك، ودنيا أخرىٰ مثلها ضمت إليك، وهب المشرق والمغرب يجبىٰ إليك، فإذا جاءك الموت فماذا بين يديك؟ ألا من امتطىٰ الصبر قوي علىٰ العبادة، ومن أجمع اليأس استغنىٰ عن الناس، ومن أهمته نفسه لم يول مرمتها غيره، ومن أحب الخير وفق له، ومن كره الشر جنبه، ألا متأهب فيما يوصف أمامه، ألا مستعد ليوم فقره وفاقته، ألا شيخ مبادر انقضاء مدته وفناء أجله، ما ينتظر من ابيضت شعرته بعد

(١) ربيع الأبرار ٢/ ٢٧.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا صـ٢٠٩.

سوادها، وتكرش وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكل بصره، وضعف ركنه، وقل نومه، وبلي منه شيء بعد شيء في حياته، فرحم الله امرأ عقل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه[١].

٤- وقال: كل شيء فاتك من الدنيا غنيمة[٢].

٥- قال ثعلب: حدثنا ابن الأعرابي قال: كان ابن السماك يتمثل بهذا:

إذا خلا في القبور ذو خطر ... فزره يومًا وانظر إلىٰ خطره
أبرزه الدهر من مساكنه ... ومن مقاصيره ومن حجره

٦- وقال: الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها في جنب ما مضىٰ قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا قليل،

(١) تاريخ الإسلام ٤/ ٩٥٩.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا صـ٢٠٤.

وقد أصبحت في دار الفناء والعزاء، وغدا تصير إلىٰ دار الجزاء، فاشتر نفسك لعلك تنجو من عذاب ربك[1].

٧- وقال: إن استطعت أن تكون كرجل ذاق الموت وعاش ما بعده فسأل الرجعة فأسعف بطلبه وأعطي حاجته فهو متأهب مبادر، فافعل فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئًا ومن نفسه لنفسه[2].

٨- وقال: «إن الذي نخاف من شر الدنيا أعظم من الشر الذي نحن فيه منها، وإنما يرجح شر الدنيا لنا عند الفراق لها، إن صرنا إلىٰ الهلاك بها»[3].

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا صـ١٤٩، وتاريخ الإسلام ٤/ ٩٥٩ واللفظ منه.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ١٠٢.

(٣) الزهد لابن الدنيا صـ١٤٩.

٩- موعظة ابن السماك لما وقف على قبر داود الطائي[(١)]

لما مات داود الطائي جاء ابن السماك ووقف علىٰ قبره ثم قال:

أيها الناس: إن أهل الزهد في الدنيا تعجلوا الراحة علىٰ أبدانهم مع يسير الحساب غدًا عليهم، وإن أهل الرغبة فيها تعجلوا التعب علىٰ أبدانهم مع ثقل الحساب غدًا عليهم، والزهادة راحة لصاحبها في الدنيا والآخرة، والرغبة تعب لصاحبها في الدنيا والآخرة؛ رحمك الله أبا سليمان ما كان أعجب شأنك، ألزمت نفسك الصبر حتىٰ قومتها: أجعتها وإنما تريد شبعها، وأظمأتها وإنما تريد ريها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، أخشنت

---

(١) هو دَاوُدُ بن نصير -ضم النون - الطائىٰ، الكوفي أَبُو سُلَيْمَانَ، الإِمَامُ، الفَقِيْهُ، القُدْوَةُ، الزَّاهِدُ،، أَحَدُ الأَوْلِيَاءِ. قال ابن حجر: ثقة فقيه زاهد. مَاتَ: سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّيْنَ وَمائَةٍ، وَقِيْلَ: سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّيْنَ .

ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٢، وتقريب التهذيب ١/ ٢٠٠.

الملبس وإنما تريد لينه؛ أبا سليمان: أما كنت تشتهي من الطعام طيبه، ومن الماء بارده، ومن اللباس لينه بلىٰ ولكن أخرت ذلك لما بين يديك، فما أراك إلا قد ظفرت بما طلبت وما إليه رغبت، فما أيسر ما ضيعت، وأحقر ما فعلت في جنب ما أملت، فمن سعىٰ مثلك عزم عزمك وصبر صبرك، آنس ما يكون إذا كنت بالله خاليًا وأوحش ما يكون آنس ما يكون الناس. سمعت الحديث وتركت الناس يحدثون وتفهمت في دين الله وتركتهم يفتون. لا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، سجنت نفسك في بيتك فلا محدث لك، ولا ستر علىٰ بابك، فلو رأيت جنازتك وكثرة تابعك علمت أنه قد شرفك وأكرمك وألبسك رداء عملك، فلو لم يرغب عبد في الزهد في الدنيا إلا لمحبة هذا الستر الجميل والتابع الكثير لكان حقيقًا بالاجتهاد، فسبحان من لا يضيع مطيعًا ولا ينسىٰ لأحد صنيعًا.

[وقيل إن ابن السماك لما قام على قبر داود قال: رحمك الله يا داود! كنت تسهر ليلك والناس نائمون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون، فقال الناس جميعًا: صدقت؛ وكنت تسلم إذ الناس يخوضون، فقال الناس جميعًا: صدقت؛ حتى عدد فضائله كلها.

ولما فرغ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: يا رب إن الناس قد قالوا ما عندهم مبلغ ما علموا، اللهم فاغفر له برحمتك ولا تكله إلى عمله، وفرغ من دفنه وقام الناس[1].

قال الطنطاوي معلقا على موعظة ابن السماك في رثاء داود: هذا هو الكلام السهل الممتنع، وهذا هو الأسلوب الذي يسهل نطقه على اللسان ويعذُب وقعه على الآذان ويدخل الجَنان بلا

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٢٦٢.

استئذان، أفندعه لتكلّف الصاحب، وتصنّع القاضي الفاضل، وألاعيب الألفاظ في مقامات الحريري؟[1].

١٠- وقال: "من أذاقته الدنيا حلاوتها لميله إليها، جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها"[2].

١١- وقال: "الناس ثلاثة: زاهد، وصابر، وراغب، فأما الزاهد: فأصبح قد خرجت الأفراح والأحزان من صدره عن اتباع هذا الغرور، فهو لا يفرح بشيء من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شيء من الدنيا فاته، لا يبالي على عسر أصبح أم على يسر، فهذا المبرز في زهده.

وقال: وأما الصابر فرجل يشتهي الدنيا بقلبه، ويتمناها بنفسه، فإذا ظفر بشيء منها ألجم نفسه عنها، كراهة شتاتها وسوء عاقبتها، فلو تطلع على ما في نفسه عجبت من نزاهته وعفته، أما

(١) ذكريات الطنطاوي ١/ ٣٩٤.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا صـ١٧٩.

الراغب فلا يبالي من أين أتته الدنيا، ولا يبالي دنس فيها عرضه، أو وضع فيه حسبه، أو جرح دينه، فهؤلاء في غمرة يضطربون، وهؤلاء أنتن من أن يذكروا "[١].

١٢- وقال: "ما بكوا لحسرة الْمَوْتِ وَإِنَّمَا بَكَوْا لِحَسْرَةِ الْفَوْتِ خَرَجُوا مِنْ دَارٍ لَمْ يَتَزَوَّدُوا مِنْهَا وَوَرَدُوا إِلَىٰ دَارٍ لا زَادَ لَهُمْ فِيهَا"[٢].

١٣- وقال القشيري في الرسالة[٣]: سمعت مُحَمَّد بْن الْحُسَيْن يَقُول: سمعت مُحَمَّد بْن عَبْد اللهِ الرازي يَقُول: سمعت عَلِي بْن مُحَمَّد الدلال يَقُول: سمعت مُحَمَّد بْن الْحُسَيْن يَقُول: سمعت

(١) الزهد لابن أبي الدنيا صـ٢١٣، والزهد وصفة الزاهدين صـ٣٠ مختصرا.

(٢)فوائد الحنائي ٢/ ١٠٢٥.

(٣) الرسالة للقشيري ١/ ٤٣، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار لأحمد بن يحيىٰ ابن فضل الله العمري ٨/ ٤٨، وقلادة النحر في وفيات أعيان الدهر لأبي محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد الهِجراني الحضرمي ٢/ ٣٣٧.

أَبِي يَقُول: "رأيت معروفا الكرخي[١] فِي النوم بَعْد موته قُلْتُ لَهُ: ماذا فعل الله بك؟ فَقَالَ: غفر لي فَقُلْتُ: بزهدك وورعك؟ فَقَالَ: لا بقبولي موعظة ابْن السماك ولزوم الفقر ومحبتي للفقراء، وموعظة ابْن السماك مَا قاله معروف كنت مارا بالكوفة فوفقت عَلَىٰ رجل يقال لَهُ: ابْن السماك وَهُوَ يعظ النَّاس، فَقَالَ فِي خلال كلامه: "من أعرض عَنِ الله بكليته أعرض الله عَنْهُ جملة، ومن أقبل عَلَىٰ الله بقلبه أقبل الله برحمته إِلَيْهِ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إِلَيْهِ، ومن كَانَ مرة ومرة فالله يرحمه وقتا مَا".

(١) هو معروف الكرخي أبو محفوظ من عباد أهل العراق وقرائهم. علم الزهاد، بركة العصر ممن له الحكايات الكثيرة في كرامته واستجابة دعائه، من رفقاء بشر بن الحارث، ليس له حديث يرجع إليه روىٰ عنه أهل العراق. قال أبو جعفر بن المنادي، وثعلب: مات معروف سنة مائتين. وقال الخطيب: هذا هو الصحيح .

وقال يحيىٰ بن أبي طالب: مات سنة أربع ومائتين - رحمة الله عليه -.

ينظر: الثقات لابن حبان ٩/ ٢٠٧، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣٣٩.

فوقع كلامه فِي قلبي فأقبلت عَلَىٰ الله تعالي، وتركت جَمِيع مَا كنت عَلَيْهِ إلا خدمة مولاي عَلِي بْن موسي الرضا، وذكرت هَذَا الْكَلام لمولاي، فَقَالَ: يكفيك بِهَذَا موعظة إِن اتعظت".

١٤- وقال : «مَنِ امْتَطَىٰ الصَّبْرَ قَوِيَ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ، وَمَنْ أَجْمَعَ الْيَأْسَ اسْتَغْنَىٰ عَنِ النَّاسِ، وَمَنْ أَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يُوَلِّ تُرْبَتَهَا غَيْرُهُ، وَمَنْ أَحَبَّ الْخَيْرَ وُفِّقَ لَهُ، وَمَنْ كَرِهَ الشَّرَّ جُنِّبَهُ، وَمَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ حَظًّا فَقَدْ أَخْطَأَ حَظَّ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَرَادَ الْحَظَّ الْأَكْبَرَ مِنَ الْآخِرَةِ سَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَأَعْمَلَ نَفْسَهُ لَهَا، وَهَانَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَجَمِيعُ مَا فِيهَا، وَالصَّبْرُ عَنِ الدُّنْيَا رَأْسُ الزُّهْدِ فِيهَا، وَالصَّبْرُ عَنِ الْمَعَاصِي هُوَ الْكُرْهُ لَهَا، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ فَرْعُ الْخَيْرِ وَتَمَامُهُ»(١).

(١) الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا صـ١٠٥، والزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي صـ٢٩ مختصرا، وحلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

١٥- موعظته في الرد على الرَّوَافِض الَّذِينَ يَسُبُّونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ مُحَمَّدَ بْنَ صَبَيْحٍ السَّمَّاكَ: عَلِمْتُ أَنَّ أَصْحَابَ مُوسَىٰ، وَأَنَّ النَّصَارَىٰ لَا يَسُبُّونَ أَصْحَابَ عِيسَىٰ، فَمَا بَالُكَ يَا جَاهِلُ تَسُبُّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، قَدْ عَلِمْتَ مِنْ أَيْنَ أُتِيتَ؟ لَمْ يَشْغَلْكَ ذَنْبُكَ، أَمَا لَوْ شَغَلَكَ ذَنْبُكَ لَخِفْتَ رَبَّكَ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَنْبِكَ شُغُلٌ عَنِ الْمُسِيئِينَ، وَيْحَكَ فَكَيْفَ لَمْ يَشْغَلْكَ عَنِ الْمُحْسِنِينَ؟ أَمَا لَوْ كُنْتَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ لَمَا تَنَاوَلْتَ الْمُسِيئِينَ وَرَجَوْتَ لَهُمْ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَلَكِنَّكَ مِنَ الْمُسِيئِينَ، فَمِنْ ثَمَّ عِبْتَ الشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، أَيُّهَا الْعَائِبُ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَوْ نِمْتَ لَيْلَكَ، وَأَفْطَرْتَ نَهَارَكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ مِنْ قِيَامِ لَيْلِكَ، وَصِيَامِ نَهَارِكَ مَعَ سُوءِ قَوْلِكَ فِي أَصْحَابِ نَبِيِّكَ، وَيْحَكَ، فَلَا قِيَامَ لَيْلٍ، وَلَا صِيَامَ نَهَارٍ، وَأَنْتَ تَتَنَاوَلُ الْأَخْيَارَ، وَأَبْشِرْ بِمَا لَيْسَ فِيهِ الْبُشْرَىٰ إِنْ لَمْ تَتُبْ مِمَّا تَسْمَعُ وَتَرَىٰ، وَيْحَكَ، هَؤُلَاءِ تَشَرَّفُوا فِي

بَدْرٍ، وَهَؤُلَاءِ تَشَرَّفُوا فِي أُحُدٍ إِذْ إِنَّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ جَاءَ عَنِ اللهِ الْعَفْوُ عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ عَفَا اللهُ عَنْهُ؟ نَحْنُ نَحْتَجُّ لِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ قَالَ: ﴿فَمَنْ تبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، فَقَدْ عَرَّضَ لِلْعَاصِي بِالْغُفْرَانِ، وَلَوْ قَالَ: فَإِنَّكَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أَوْ عَذَابُكَ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَانَ قَدْ عَرَّضَ لِلِانْتِقَامِ، فِيمَنْ تَحْتَجُّ أَنْتَ يَا جَاهِلُ إِلَّا بِالْجَاهِلِينَ لِبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَشْتُمُونَ السَّلَفَ لَوَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ مِنَ الْخَلَفِ، وَهَؤُلَاءِ جَاءَ الْعَفْوُ عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ

عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ، فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ؟، فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ؟[١]

١٦- وقال: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى: أيها المخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه ما كان لك فينا معتبرًا أما كان لك في تقدمنا إياك فكرة أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك.

قال: ويناديه بقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب عنك من أهلك في باطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك[٢].

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي ٨/ ١٥٤٧، والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي لأبي الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني صـ٣٧٦.

(٢) المقلق لابن الجوزي ١/ ٥٥.

١٧- وقال: كم من شيء إذا لم ينفع لم يضر، ولكن العلم إذا لم ينفع ضر(١).

١٨- كتاب ابن السماك إلى ابن كليب

قال ابن كليب: كتب إلي ابن السماك: "أما بعد فإني كتبت إليك وأنا مسرور مستور، وأنا بهما مغرور ذنب ستره علي، وقد طَابَتِ النَّفْسُ بِهِ كَأَنَّهُ مَغْفُورٌ وَنَعْمَةٌ أَبْلَاهَا فَأَنَا بِهَا مَسْرُورٌ كَأَنِّي فِيهَا عَلَىٰ تَأْدِيَةِ الْحُقُوقِ مَشْكُورِ فَيَالَيْتَ شَعْرِي مَا عَوَاقِبَ هَذِهِ الْأُمُورِ"(٢).

١٩- وقال لرجل: "تبارك من خلقك فجعلك تبصر بشحم، وتسمع بعظم، وتتكلم بلحم"(٣).

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٢٩٠، وحلية الأولياء ٨/ ٢٠٥، بلفظ "وأنا مسرور مسبور".

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٥٩.

٢٠- وقال: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا تَغْدُو فِي كَسْبِ الْأَرْبَاحِ فَاجْعَلْ نَفْسَكَ فِيمَا تَكْسِبُهُ فَإِنَّكَ لَنْ تَكْسِبَ مِثْلَهَا[١].

٢١- وقال : "إن الميت إذا عذب في قبره نادته الموتىٰ أيها المتخلف بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في تقدمنا إياك فكرة أما رأيت انقطاع أعمالنا وأنت في مهلة أما؟[٢].

٢٢- كتاب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي قضاء بالرقة

قال ابن السماك، قال: كتبت إلىٰ محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة: "أما بعد فلتكن التقوىٰ من بالك علىٰ كل حال، وخف الله عز وجل في كل نعمة عليك لقلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعمة حجة، وفيها تبعة. فأما الحجة فيها

(١) القصاص والمذكرين صـ٢٥٣.

(٢) فيض القدير ٥/ ٤٤٦.

فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفا الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق"[1].

٢٣- وقال: "إِنَّ التَّصَوُّفَ التَّوَثُّقُ بِالْأُصُولِ لِلتَّحَقُّقِ لِلْوُصُولِ".

٢٤- وقال: الْأَخْذُ بِالْأُصُولِ وَتَرْكُ الْفُضُولِ مِنْ فِعْلِ ذَوِي الْعُقُولِ.

٢٥- وقال: «هِمَّةُ الْعَاقِلِ فِي النَّجَاةِ وَالْهَرَبِ، وَهِمَّةُ الْأَحْمَقِ فِي اللهْوِ وَالطَّرَبِ».

٢٦- وقال: «يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تُطِيعَ مَنْ عَصَىٰ الْحَاسِدِينَ فِيكَ أَمَا وَعِزَّتِهِ لَوْ أَطَاعَهُمْ قَدْ يَجْعَلُكَ نَكَالًا» .

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٢٤.

٢٧- وقال: "عَجَبًا لِعَيْنٍ تَلِذُّ بِالرُّقَادِ، وَمَلَكُ الْمَوْتِ مَعَهُ عَلَىٰ وِسَادٍ"

٢٨- وقال: «مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ الْعُسْرِ قَوِيَ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ، وَمَنْ أَجْمَعَ النَّاسُ اسْتَغْنَىٰ عَنِ النَّاسِ وَمَنْ أَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يُوَلِّ مَسَرَّتِهَا إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْخَيْرَ وُفِّقَ لَهُ وَمَنْ كَرِهَ الشَّرَّ حَبَّهُ، وَمَنْ رَضِيَ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ حَظًّا فَقَدْ أَخْطَأَ حَظَّ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَرَادَ الْحَظَّ الْأَكْبَرَ مِنَ الْآخِرَةِ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا، وَأَعْمَلَ نَفْسَهُ لَهَا فَهَانَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَأَجْمَعَ مَا فِيهَا، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ الْمَعَاصِي هُوَ الْكُنُّ لَهَا وَالصَّبْرُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ فَرْعُ الْخَيْرِ وَتَمَامُهُ»[(١)].

٢٩- وكَتَبَ رَجُلٌ إِلَىٰ مُحَمَّدِ ابْنِ السَّمَّاكِ: صِفْ لِي الدُّنْيَا؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ حَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ مَلَأَهَا آفَاتٍ،

(١) من أول موعظة رقم ٢٣ الىٰ هنا منقول من الحلية ترجمة ابن السماك ٨/ ٢٠٣- ٢١٠.

فَحَلَالُهَا بِالرَّزِيَّاتِ، وَحَرَامُهَا بِالتَّبِعَاتِ، فَحَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ"[١].

٣٠- وقال: "وَقَدْ قَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: كُنْ لِهَوَاك مُسَوِّفًا، وَلِعَقْلِك مُسْعِفًا، وَانْظُرْ إلَىٰ مَا تَسُوءُ عَاقِبَتُهُ فَوَطِّنْ نَفْسَك عَلَىٰ مُجَانَبَتِهِ فَإِنَّ تَرْكَ النَّفْسِ وَمَا تَهْوَىٰ دَاؤُهَا، وَتَرْكَ مَا تَهْوَىٰ دَوَاؤُهَا، فَاصْبِرْ عَلَىٰ الدَّوَاءِ، كَمَا تَخَافُ مِنْ الدَّاءِ[٢].

٣١- وقال: قطع قلوب العارفين بالله ذكر الخلودين الجنة والنار"[٣].

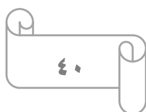
٣٢- وقال ابن السماك: "كتبت علىٰ رجل: إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبدًا ما وجدت من العبودية بدًّا- فافعل"[٤].

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤، والزهد والرقائق للخطيب البغدادي صـ١٠٠

(٢) أدب الدنيا والدين ١/ ٣١

(٣) التخويف من النار صـ٣٣

(٤) الفتوة لأبي عبد الرحمن السلمي صـ٣٥، وروضة العقلاء لابن حبان ١/ ٨٢



٣٣- وقَالَ: "لِنْ لمن يجفو فقل من يصفو"(١).

٣٤- وكتب ابن السماك إلىٰ أخ له:

أما بعد: أَمَا بَعْدُ أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ الَّذِي هُوَ نَجِيُّكَ فِي سَرِيرَتِك، وَرَقِيبُكَ فِي عَلَانِيَتِكَ، فَاجْعَلِ اللهَ فِي بَالِكَ عَلَىٰ حَالِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَحِبِّ اللهَ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ بِعَيْنِهِ لَيْسَ تَخْرُجُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَىٰ سُلْطَانِ غَيْرِهِ، وَلَا مِنْ مُلْكِهِ إِلَىٰ مُلْكِ غَيْرِهِ فَلْيَعْظُمْ مِنْهُ حَذَرُكَ وَلْيَكْثُرْ مِنْهُ وَجَلُكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الذَّنْبَ مِنَ الْعَاقِلِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ مِنَ الْأَحْمَقِ، وَالذَّنْبَ مِنَ الْعَالِمِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ مِنَ الْجَاهِلِ وَالذَّنْبَ مِنَ الْغِنَىٰ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ مِنَ الْفَقِيرِ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا أَذِلَّاءَ رُغَمَاءَ وَالذَّلِيلُ لَا يَنَامُ فِي الْبَحْرِ، وَقَدْ كَانَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: حَتَّىٰ مَتَىٰ تَصِفُونَ

(١) روضة العقلاء لابن حبان ١/ ١٧٠

الطَّرِيقَ لِلذَّاكِرِينَ وَأَنْتُمْ مُقِيمُونَ فِي مَحِلِّهِ الْمُتَجَبِّرِينَ تَضَعُونَ الْبَعُوضَ مِنْ شَرَابِكُمْ وَتَشْتَرِطُونَ[1] الْجِمَالَ بِأَجْمَالِهَا.

وَقَالَ: إِنَّ الزِّقَّ إِذَا نُقِبَ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْعَسَلُ وَإِنَّ قُلُوبَكُمْ قَدْ نُقِبَتْ فَلَا تَصْلُحُ فِيهَا الْحِكْمَةُ .

أَيْ أَخِي كَمْ مِنْ مُذَّكَّرٍ بِاللهِ نَاسٍ لِلَّهَ وَكَمْ مِنْ مُخَوَّفٍ بِاللهِ جَرِيءٌ عَلَىٰ اللهِ وَكَمْ مِنْ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ فَارٌ مِنَ اللهِ، وَكَمْ مِنْ قَارِئٍ لِكِتَابِ اللهِ يَنْسَخُ مَنْ آيَاتِ اللهِ وَالسَّلَامَ[2].

٣٥- وقال: لا تخف ممن تحذر، ولكن احذر ممن تأمن[3].

٣٦- وقال: طلبت المال ففكّرت في قارون، ثم طلبت الرئاسة، ففكرت في فرعون، ثم طلبت الجلادة ، ففكرت في عاد، ثم طلبت

---

(١) أي: تبتلعون.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ١٠١.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٩/ ٣٥٠.

الزهد، ففكرت في بلعم بن باعور[١] ثم ما رأيت شيئا يقرّب إلىٰ الله تعالىٰ كقلب ورع، ولسان صادق، وبدن صابر[٢].

٣٧- وقال : عجبا لمن يشتري المماليك بماله، ويترك شراء الأحرار بمعروفه[٣].

٣٨- وقال: "كُنْتُ أَطُوفُ أَطْلُبُ الْعُبَّادَ وَالزُّهَّادَ فَذُكِرَ لِي رَجُلٌ بِعَبَّادَانَ، قَدْ رَفَضَ الدُّنْيَا، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ الْآخِرَةِ جِدًّا، وَاجْتِهَادًا فَأَتَيْتُ عَبَّادَانَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَوُصِفَ لِي دَارُهُ، فَأَتَيْتُ إِلَىٰ بَابِ دَارٍ كَبِيرَةٍ لَيْسَ عَلَيْهَا إِلَّا بَابٌ بِمِصْرَاعٍ صَغِيرٍ، فَقَرَعْتُ الْبَابَ، فَخَرَجَتْ إِلَيَّ جَارِيَةٌ خُمَاسِيَّةٌ فَقَالَتْ: مَنِ الطَّارِقُ بِالْبَابِ؟ قُلْتُ: أَنَا يَا جَارِيَةُ هَذَا مَنْزِلُ فُلَانٍ الْعَابِدِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ لَهَا: اسْتَأْذِنِي

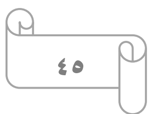
(١) هو بلعم ويقال بلعام بن باعوراء كان يسكن قرية من قرىٰ البلقاء وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلخ من دينه قال تعالىٰ "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها" [الأعراف: ١٧٥]. ينظر: تاريخ دمشق ١٠/ ٣٩٦

(٢) الاقتباس من القرآن الثعالبي صـ٢٥٨.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ١٣/ ٣٢٨.

عَلَيْهِ، فَإِنْ أَنَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهَبْتُ لَكِ دِرْهَمًا، فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا هُوَ أَجْهَلُ مِنْكَ، ادْخُلْ فَمَا عَلَىٰ أَبِي مِنْ حَاجِبٍ، وَإِنَّمَا الْحُجَّابُ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْمُلُوكِ، وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، فَبُهِتُّ مُتَعَجِّبًا مِنْ قَوْلِهَا، ثُمَّ دَخَلَتْ وَدَخَلْتُ مَعَهَا وَإِذَا دَارٌ قَوْرَاءُ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَيْتٌ صَغِيرٌ، فَدَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ قَدْ نَحُلَ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ، وَقَدِ احْتَفَرَ قَبْرًا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَقَدْ دَلَّىٰ رِجْلَيْهِ فِيهِ، وَفِي يَدِهِ خُوصٌ يَشُقُّهُ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] بِصَوْتٍ حَزِينٍ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَقَالَ: أَمِنْ إِخْوَانِي أَنْتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ وَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ عَبَّادَانَ قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَالَ: فَمَا اسْمُكَ؟ قُلْتُ: مُحَمَّدُ بْنُ السَّمَّاكِ قَالَ: لَعَلَّكَ الْوَاعِظُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَخَذَ يَدِي بِيَدَيْهِ جَمِيعًا ثُمَّ قَالَ لِي: مَرْحَبًا وَحَيَّاكَ اللهُ يَا أَخِي بِالسَّلَامِ، وَمَتَّعَنَا

وَإِيَّاكَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِخْوَانِ يَا أَخِي مَازَالَتْ نَفْسِي مُتَطَلِّعَةً إِلَىٰ لِقَائِكَ تُحِبُّ أَنْ تَعْرِضَ دَاءَهَا عَلَىٰ دَوَاءِكَ، أُعْلِمُكَ يَا أَخِي أَنَّ بِي جُرْحًا قَدِيمًا قَدْ أَعْيَىٰ الْمُعَالِجِينَ قَبْلَكَ، فَتَأَتَّاهُ بِرِفْقِكَ، وَأَلْصِقْ عَلَيْهِ مَا تَعْلَمُ أَنَّهُ يُلَائِمُهُ مِنْ مَرَاهِمِكَ، قَالَ: فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ أَعِظَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَخِي وَهَلْ يُدَاوِي مِثْلِي مِثْلَكَ؟ وَجُرْحِي أَنْغَلُ مِنْ جُرْحِكَ، وَذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ ذَنْبِكَ. فَقَالَ: سَأَلْتُكَ بِاللهِ إِلَّا مَا وَعَظْتَنِي فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَخِي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَنْبَكَ الَّذِي أَذْنَبْتَ لَمْ يُمْحَ، وَأَنَّ لَذَاذَتَكَ لَمْ تَبْقَ، وَأَنَّ الْمَوْتَ يَطْلُبُكَ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَإِنَّكَ تَصِيرُ غَدًا إِلَىٰ ضِيقِ اللُّحُودِ وَظُلْمَةِ الْقُبُورِ، وَمَسْأَلَةِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، فَلَمَّا قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ شَهِقَ شَهْقَةً خَرَّ فِي قَبْرِهِ يَخُورُ كَأَنَّهُ الثَّوْرُ إِذَا وُجِيَ فِي مَنْحَرِهِ، وَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ وَابْنَتُهُ تَبْكِيَانِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ وَتَقُولَانِ: سَأَلْنَاكَ بِاللهِ لَا تَزِدْهُ شَيْئًا فَتَقْتُلَهُ عَلَيْنَا. فَأَفَاقَ فَقَالَ: يَا أَخِي قَدْ وَافَقَ دَوَاءُكَ دَائِي، وَلَصَقَ مَرْهَمُكَ بِجُرْحِي، أَخِي ابْنَ السَّمَّاكِ زِدْنِي. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَخِي إِنَّ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ قَدْ



حَلَّفُونِي أَنِّي لا أَزِيدُكَ شَيْئًا فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: اعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ عَلَيَّ وَبَالًا وَلَا أَعْظَمَ جُرْمًا مِنِّي إِذَا وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي – مِنْ أَهْلِي وَوَلَدِي.

فَقُلْتُ: يَا أَخِي مَا بَعْدَ ظُلْمَةِ الْقُبُورِ وَضِيقِ اللُّحُودِ وَمَسْأَلَةِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ إِلَّا الطَّامَّةُ. قَالَ: وَمَا هِيَ يَا ابْنَ السَّمَّاكِ؟ فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا أَخَذَ إِسْرَافِيلُ يَعْنِي فِي نَفْخِ الصُّورِ، وَبُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَجِئْنَا نَحْنُ بِأَثْقَالِنَا نَحْمِلُ عَلَىٰ الظُّهُورِ. فَكَمْ يَا أَخِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُنَادٍ يُنَادِي بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ؟ وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا تَوْبِيخُ الرَّبِّ إِيَّانَا عِنْدَ قِرَاءَةِ السَّيِّئَاتِ الَّتِي قَدْ أَحْصَىٰ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ فِيهِ النَّقِيرُ وَالْفَتِيلُ وَالْقِطْمِيرُ؛ وَمَلَائِكَةٌ مُتَّزِرُونَ بِأُزُرٍ مِنْ نَارٍ، غِضَابٌ لِغَضَبِ الرَّحْمَنِ يَنْتَظِرُونَ مَا يُقَالُ لَهُمْ بِالْغَضَبِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] قَالَ: فَشَهِقَ شَهْقَةً فَخَرَّ فِي قَبْرِهِ كَأَنَّهُ ثَوْرٌ قَدْ وُجِيَ فِي مَنْحَرِهِ، وَبَالَ فَعَرَفْتُ بِالْبَوْلِ ذَهَابَ عَقْلِهِ، فَأَقْبَلَتِ ابْنَتُهُ فَاجْتَذَبَتْهُ، وَأَسْنَدَتْهُ إِلَىٰ صَدْرِهَا وَمَسَحَتْ وَجْهَهُ بِكُمِّهَا، وَهِيَ

تَقُولُ: بِأَبِي وَأُمِّي عَيْنَيْنِ طَالَ مَا سَهِرَتَا فِي طَاعَةِ اللهِ بِأَبِي وَأُمِّي عَيْنَيْنِ طَالَ مَا غُضَّتَا عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَأَفَاقَ فَقَالَ لِي: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا ابْنَ السَّمَّاكِ أَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَشَهِقَ الثَّالِثَةَ فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِثْلُ الْأُولَيَيْنِ فَحَرَّكْتُهُ فَإِذَا الرَّجُلُ قَدْ فَارَقَ الدُّنْيَا"(١)

٣٩- وقَالَ ابن السماك لمحمد بْن سليمان - أو حماد بْن موسىٰ لكاتبه- ورآه كالمعرض عنه: مالي أراك كالمعرض عني؟

قَالَ: بلغني عنك شيء كرهته.

قال: إذًا لا أبالي.

قَالَ: ولم؟

قَالَ: لأنه إن كان ذنبًا غفرته، وإن كان باطلًا لم تقبله.

(١) شعب الإيمان ٢/ ٢٨٦.

قَالَ: فعاد إلىٰ المؤانسة[1].

٤٠- وقال: الدنيا كالعروس المجلوة تشرفت لخطابها، وفتنت بغرورها، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والأبدان لها عاشقة، وهي لأزواجها قاتلة[2].

٤١- وقال: وكَتَبْتُ إِلَىٰ صِدِّيقٍ لِي أَنَّ الرَّجَاءَ فِي قَلْبِكَ، قَيْدٌ فِي رِجْلِكَ فَأَخْرِجِ الرَّجَاءَ مِنْ قَلْبِكَ تَحِلَّ الْقَيْدَ مِنْ رِجْلِكَ[3].

علق البيهقي رحمه الله في الشعب: "وهذا رجاء غلب علىٰ الخوف"[4].

٤٢- وقال: خير الإخوان أقلّهم مصانعة في النصيحة، وخير الأعمال أحلاها عاقبة، وخير الثناء ما كان علىٰ أفواه الأخيار،

(١) روضة العقلاء صـ١٨٧، والعقد الفريد ٢/ ٢٠.

(٢) اللطائف والظرائف الثعالبي صـ١٥، والإمتاع والمؤانسة صـ٢٤٦.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٣٢٥، وتاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.

(٤) شعب الإيمان ٢/ ٣٢٥.

وأشرف السلطان ما لم يخالطه البطر، وأغنىٰ الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرا، وخير الإخوان من لم يخاصم، وخير الأخلاق أعونها علىٰ الورع، وإنما يختبر ودّ الرجال عند الفاقة والحاجة[1].

٤٣- وقال: "أَصْبَحْتِ الْخَلِيقَةُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ صِنْفٍ مِنَ الذُّنُوبِ مُوَطِّنٌ نَفْسَهُ عَلَىٰ هُجْرَانِ ذَنْبِهِ لَا يُرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ سَيِّئَةٍ هَذَا الْمَبْرُورُ، وَصِنْفٍ يُذْنِبُ ثُمَّ يُذْنِبُ وَيُذْنِبُ وَيَحْزَنُ وَيُذْنِبُ وَيَبْكِي هُنَا يُرْجَىٰ لَهُ وَيُخَافُ عَلَيْهِ وَصِنْفٍ يُذْنِبُ وَلَا يَنْدَمُ، وَيَنْدَمُ وَلَا يَحْزَنُ، وَيُذْنِبُ وَلَا يَبْكِي فَهَذَا الْخَائِنُ الْحَائِدُ عَنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ النَّارِ"[2]

٤٤- وقال: الذباب علىٰ العذرة أحسن من القارئ علىٰ أبواب الملوك ، وكان ابن السماك يعاتب نفسه يقول فميا يعاتبها به:

---

(١) زهر الآداب ٢/ ٦١٩.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٩/ ٣٥١، وحلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

تقولين قول الزاهدين، وتعملين عمل المنافقين؟ والجنة تطمعين تدخلين؟ هيهات للجنة قوما آخرين[١].

٤٥- وقال: يابن آدم، إنما تغدو في كسب الأرباح فاجعل نفسك فيما تكسبها، فإنك لن تكسب مثلها.

ثم يقول:

أراك تحب أن تدعىٰ حكيمًا   وأنت لكل ما تهوىٰ ركوب

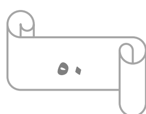
وتضحك دائبًا ظهرًا لبطن   وتذكر ما عملت فلا تتوب[٢]

٤٦- وقال: كتب رجل من مياسير أهل بغداد إلي يسألني أن أصف له الدنيا، فكتبت إليه: أما بعد، فإن الله حفها بالشهوات، ثم

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.



ملأها بالآفات، ومزج حلالها بالمئونات، ومزج حرامها بالتبعات؛ فحلالها حساب، وحرامها عذاب[(١)].

٤٧- جرىٰ بين ابن السماك وبين صديق له كلام، فقال له صديقه: الميعاد غدا نتعاقب.

فقال: "بل الميعاد غدا نتغافر"[(٢)].

٤٨- وقال: يا ابن آدم أنت في حبس، مذ كنت أنت في الصلب محبوس، ثم تخرج إلىٰ الرحم فتكون محبوسًا، ثم تخرج إلىٰ السرير والقماط فتكون محبوسًا، ثم تنشأ فتصير في الكتّاب في حبس، ثم تكبر فتصير محبوسًا في الكد علىٰ العيال، ثم تصير في القبر محبوسًا، فاطلب لنفسك الراحة بعد الموت حتىٰ لا تكون أيضًا في حبس[(٣)].

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧، والتذكرة الحمدونية ١/ ١٩١.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ١٠/ ٥٦١.

(٣) ربيع الأبرار ١/ ٤٢٣.

٤٩- وحضر ابن السماك جنازة فعزى أهلها وقال: "عليكم بتقوى الله والصبر، فإن المصيبة واحدة إن صبر لها أهلها، وهي اثنتان: إن جزعوا، ولعمري للمصيبة بالأجر أعظم من المصيبة بالميت، ثم قال: "لو كان من جزع على ميته رد إليه لكان الصابر أعظم أجرا وأجزل ثوابا""[(١)].

٥٠- وكان ابنُ السَّماك ينشد[(٢)]:

يا مُدمِنَ الذَّنْبِ أما تَستَحِي ... والله في الخَلْوَةِ ثَانِيكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إمْهَالُهُ ... وستْرُهُ طولَ مَساوِيكَا

٥١- وقال: «حَتَّىٰ مَتَىٰ بَلَغَ الْوَاعِظُونَ أَعْلَامَ الْآخِرَةِ، حَتَّىٰ وَاللهِ لِكُلِّ نَفْسٍ مَا عَلَيْهَا وَاقِفَةٌ وَكَأَنَّ الْعُيونَ إِلَيْهَا نَاظِرَةٌ، فَلَا مُنْتَبِهٌ مِنْ نَوْمَتِهِ وَلَا مُسْتَيْقِظٌ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَلَا مُفِيقٌ مِنْ سَكْرَتِهِ وَلَا خَائِفٌ مِنْ

(١) شعب الإيمان للبيهقي ١٢/ ٤٤٤.

(٢) تفسير الثعلبي ١٠/ ١٤٦، والتفسير الوسيط للواحدي ٤/ ٤٣٥، وجامع العلوم والحكم ٢/ ٤٨٠.

صَرَعْتِهِ الرَّجَا لِلدُّنْيَا يَجْعَلُ لِلْآخِرَةِ مِنْكَ حَظًّا، أُقْسِمُ بِاللهِ لَوْ قَدْ رَأَيْتُ الْقِيَامَةَ تَخْفِقُ بِزَلْازِلِ أَهْوَالِهَا وَقَدْ عَلَتِ النَّارُ مُشْرِفَةً عَلَىٰ أَهْلِهَا وَقَدْ وُضِعَ الْكِتَابُ وَنُصِبَ الْمِيزَانُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَيَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ مَنْزِلٌ وَزُلْفَىٰ أَبَعْدَ الدُّنْيَا إِلَىٰ غَيْرِ الْآخِرَةِ تَنْتَقِلُ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ كَلَّا وَاللهِ وَلَكِنْ صُمَّتُ الْآذَانُ عَنِ الْمَوَاعِظِ، وَذُهِلَتِ الْقُلُوبُ، عَنِ الْمَنَافِعِ، فَلَا الْمَوَاعِظُ تَنْفَعُ وَلَا الْمَوْعُوظُ يَنْتَفِعُ بِمَا يَسْمَعُ»(١).

٥٢- وقال: "أَيْ أَخِي أَسِرَّ أَعْمَالَكَ عَلَىٰ نَفْسِكَ ثُمَّ قَبِّحْهَا جَهْدَكَ بِعَقْلِكَ لَعَلَّهُ يَدْعُوكَ بِقُبْحِها إِلَىٰ تَرْكِ مُهَاوَدَتِهَا، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَيْسَ تَبْلُغُ غَايَةَ قُبْحِهَا عِنْدَ رَبِّكَ فَسَلْهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْكَ بِعَفْوِهِ"(٢).

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ٨/ ٢٠٧

٥٣- وقال: "مَعْرِفَتُكَ بِاللهِ أَنْ تُصِيبَ الذَّنْبَ، الَّذِي أَقْلَلْتَ الْحَيَاءَ مِنْ رَبِّكِ"(١).

٥٤- وقال: "تَعْدُوا مِنْ كَتَبَةِ الْأَرْبَاحِ فَاجْعَلْ نَفْسَكَ مِمَّا يَكْتُبُهَا تَكُنْ تَكْتُبَ مِثْلَهَا"(٢).

٥٥- وقال: "«لَا يَغُرَّنَّكُمْ سُكُونُ هَذِهِ الصُّوَرِ فَمَا أَكْثَرَ الْمَغْمُومِينَ فِيهَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اسْتِوَاؤُهَا فَمَا أَشَدَّ بَقَاءَهُمْ فِيهَا"(٣).

٥٦- وقال: مُحَمَّدُ بْنُ السَّمَّاكِ: "خَرَجْتُ مِنَ العِرَاقِ أُرِيدُ بَعْضَ الثُّغُورِ فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي جَبَلٍ مُظْلِمٍ إِذْ نَظَرْتُ إِلَىٰ عَامَلٍ عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ قَدِ انْفَرَدَ مِنَ المَخْلُوقِينَ وَاسْتَأْنَسَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ جَلَالُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قُلْتُ: مِنَ العِرَاقِ أُرِيدُ بَعْضَ الثُّغُورِ.

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٠٧.

فَقَالَ: إِلَىٰ أَمْرٍ تُوقِنُونُهُ أَوْ إِلَىٰ أَمْرٍ لَا تُوقِنُونَهُ قُلْتُ: لَا بَلْ إِلَىٰ أَمْرٍ لَا نُوقِنُهُ ثُمَّ قَالَ: آهٍ قُلْتُ: مِمَّ يَتَأَوَّهُ الْعَابِدُ؟

قَالَ: ذَكَرْتُ عَيْشَ الْمُسْتَرِيحِينَ وَفَرْحَةَ قُلُوبِ الْوَاصِلِينَ فَقُلْتُ: إِنِّي رَجُلٌ مَهْمُومٌ، قَالَ: وَمِمَّ هَمُّكَ؟

قُلْتُ: فِي ثَلَاثٍ، قَالَ: وَمَا هَذِهِ؟

قُلْتُ: مَا دَلِيلُ الْخَوْفِ؟ قَالَ: الْحُزْنُ.

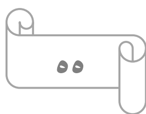
قُلْتُ: فَمَا دَلِيلُ الشَّوْقِ؟ قَالَ: الطَّلَبُ.

قُلْتُ: فَمَا دَلِيلُ الرَّجَاءِ؟ قَالَ: الْعَمَلُ. قُلْتُ: فَمِنْ أَيْنَ ضَعْفُنَا؟

قَالَ: لِأَنَّكُمْ وَثِقْتُمْ بِعَفْوِ اللهِ عَنْكُمْ وَلَوْ عَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ لَهَوَيْتُمْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَىٰ طَاعَتِهِ وَلَكِنَّ حِلَّهُ وَسِتْرَهُ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

إِنْ كُنْتَ تَفْهَمُ مَا أَقُولُ وَتَعْقِلُ فَارْحَلْ بِنَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ لِرَبِّكَ تَرْحَلُ



وَذرِ التَّشَاغُلَ بِالذُّنُوبِ وَخَلِّهَا حَتَّىٰ مَتَىٰ وَإِلَىٰ مَتَىٰ تَتَمَلَّلُ "[١].

٥٧- وقال : «اعْلَمْ أَنَّ لِلْمَوْعَظَةِ غِطَاءٌ، وَكَشْفُ غِطَائِهَا التَّفَكُّرُ، وَلَحَاجَتُكَ إِلَىٰ الْعَظَةِ أَكْثَرُ مِنْ حَاجَتِكَ إِلَىٰ الصِّلَةِ. وَأَخَافُ أَنْ لَا تَجِدَ لَهَا مَوْضِعًا فِي عَقْلِكَ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا»[٢].

٥٨- وَقَفَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَىٰ قَبْرٍ فَقَالَ: «يَا قَاسِمُ خَلُّوهُ وَخلي بِكَ رَجَعْنا وتركناك، وَلَوْ أَقَمْنَا مَا نَفَعْنَاكَ».

ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَقَامُوا عَلَىٰ قَبْرِه عُمرَ الدُّنْيَا مَا انْتَفَعَ بِطُولِ إِقَامَتِهِمْ عَلَيْهِ فَقَدِّمُوا مَا تُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ تَقْدَمُونَ وَأَخِّرُوا مَا تُؤَخِّرُونَ فَإِنَّكُمْ إِلَيْهِ لَا تَرْجِعُونَ [٣].

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٠٩، في المطبوع تصحيف واضح أخل بالمعنى، وقد صوبته من مخطوطة برنستون ق٦٧ .

٥٩- كَانَ ابْنُ السَّمَّاكِ يَقُولُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ: «أَلَا مُتَأَهِّبٌ فِيمَا يُوصَفُ لَهُ أَمَامَهُ مُسْتَعِدٌ لِيَوْمِ فَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ أَلَا شَابٌّ عَادِمٌ مُبَادِرُ لِمَنِيَّتِهِ لَيْسَ يَغُرُّهُ شَبَابُهُ وَلَا شِدَّةُ قُوَّتِهِ»[1].

٦٠- وخرج ابن السماك يوما إلىٰ أصحابه وقد اجتمعوا إليه فقال لهم: قد كثرت عظاتي لكم، تريدون دوائي لكم، قالوا: نعم. قال: خالفوا أهواءكم، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم[2].

٦١- وقال: أيها المغرور بصحته ونشاطه أما علمت أن الأرواح يغدىٰ عليها بالمنايا ويراح، وأنشد:

ومؤمل قد قصرت أكفانه   ومحاذر أكفانه لم تغزل[3].

(١) المصدر السابق ٨/ ٢١٠.

(٢) تفسير التستري صـ١٨٦.

(٣) ربيع الأبرار٣/ ١٦١.

٦٢- وقال لا أدري أؤجر علىٰ ترك الكذب أم لا، لأني أتركه أنفة[١].

٦٣- قال ابن السمّاك للمتصوفة: إن كان لباسكم هذا موافقا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس علىٰ سرائركم، ولئن كان مخالفا لسرائركم لقد هلكتم[٢].

٦٤- وقال: لا تسأل من يفرّ من أن تسأله، ولكن اسأل من أمرك أن تسأله[٣].

٦٥- وقال ابن السماك في موعظة: سل الأرض: من غرس أشجارك؟ وأجرىٰ أنهارك؟ وأخرج ثمارك؟ فإن لم تجبك اختيارا أجابتك اعتبارا[٤].

---

(١) نفس المصدر ٤/ ٣٤٤.

(٢) نفس المصدر ٤/ ٣٠٢، والعقد الفريد ٢/ ٢١٣.

(٣) نفس المصدر ٣/ ١٧٠.

(٤) تفسير السمعاني ٥/ ٤٠.

٦٦- إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد[١].

٦٧- وقال: "جلاء القلوب استماع الحكمة، وصدؤها الملالة والفتور"[٢].

٦٨- وقال: يا عجبا لمن عصىٰ المحسن بعد معرفته بإحسانه! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته! [٣].

٦٩- سأل ابن السماك رجلا حاجة فقال: اعلم أني أتيتك في حاجة وأن الطالب والمطلوب إليه عزيزان إن قضيت، وذليلان إن لم تقض، فاختر لنفسك عز البذل علىٰ ذل المنع، ولي عز النجح علىٰ ذل الرد[٤].

(١) الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٤.

(٢) ربيع الأبرار ٣/ ٤٠٣.

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٢٤.

(٤) ربيع الأبرار ٣/ ١٧٥.

٧٠- وقال عن التوبة: "أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك"[١].

٧١- وقال: الدنيا من نالها مات منها، ومن لم ينلها مات عليها[٢].

٧٢- وقال: من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها، جرعته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها[٣].

٧٣- وقال: "احْذر السَّكرةَ والحَسْرةَ أن يفجأك الموتُ وأنت علىٰ الغِرَّةِ، فلا يصفُ واصفٌ قدْرَ ما تلقىٰ ولا قدْرَ ما ترىٰ"[٤].

(١) الكشاف ٤/ ٥٦٩، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٩٨.

(٢) ربيع الأبرار١/ ٢٨.

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٣.

(٤)تفسير ابن رجب ١/ ٣٠٤.

٧٤- إن الموتَىٰ لَمْ يبْكُوا من الموت لكنهم بَكَوْا مِنْ حَسْرة الفوت، فَاتَتْهُمْ واللهِ، دَارٌ لَمْ يتزوَّدوا منها ودخلوا داراً لم يتزوَّدوا لها[(١)].

٧٥- وخرج ابن السماك أيام الربيع فنظر إلىٰ الأنوار فصاح، وقال: يا منور الأشجار بأنواع الأنوار نور قلوبنا بذكرك وحسن طاعتك[(٢)].

٧٦- إن الخوف المنصرف للمتفرقين قطع نياط قلوب العارفين[(٣)].

٧٧- وقال: الفطام عن الحطام شديد[(٤)].

---

(١)تفسير الثعالبي ٣/ ٣٩٤.

(٢) روح البيان للآلوسي ٧/ ٥٣.

(٣) المصدر السابق ٨/ ٢٩٩.

(٤) ربيع الأبرار ٥/ ٧٨.

٧٨- قالت جارية ابن السماك له: ما أحسن كلامك لولا أنك تكثر تكراره، وتكرار ترداده! قال: أردده يفهمه من لم يفهمه. قالت: فإلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه[١].

٧٩- وقال: النعمة من الله على عبده مجهولة فإذا فقدت عفت[٢].

٨٠- وقال: "أحق الإخوان ببقاء المودة الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملّك على القرب ولا ينساك على البعد ان دنوت منه داناك، وان بعدت عنه راعاك، وان استعنت به عضدك، وان احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله، فهو الذي يواسيك في الشدة أكثر من الرخاء، ويغار عليك كما يغار

(١) نفس المصدر ٥/ ٢١٧.

(٢) نفس المصدر ٥/ ٢٨٣.

علىٰ نفسه ويساوي حاجتك بحاجته بل تقتضىٰ مروءته تقديمها علىٰ حاجته ولو أضرّت به"(١).

٨١- وقال: «لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض، وكن اليوم مشغولًا بما أنت مسؤول عنه غدًا، وإياك والفضول، فإن حسابها يطول» (٢).

٨٢- وقال: إذا فعلت الحسنة فافرح بها واستقللها فإنك إذا استقللتها زدت عليها، وإذا فرحت بها عدت إليها(٣).

٨٣- وقال: لأن أكون في السوق وقلبي في المسجد أحب إلي من أكون في المسجد وقلبي في السوق(٤).

---

(١) بيان المعاني لعبد القادر العاني ٣/ ٢٣١.

(٢) المحاسن والأضداد صـ١٥٦، والمحاسن والمساوئ ١/ ١٣٢.

(٣) الكامل للمبرد صـ١٩٦.

(٤) البديع في البديع لابن المعتز صـ١٣٠.

٨٤- أمر المهدي بضرب عنق رجل، فقام إليه ابن السماك فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق.

قال: فما يجب عليه؟

قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوني، وإن كان من وزر كان عليّ دونك. فخلّى سبيله(١).

٨٥- وكان ابن السماك يقول إذا فرغ من كلامه: ألسن تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف(٢).

٨٦- وقال: الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك في الملا ، ويبكي في الخلا(٣).

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٦١.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٨٢.

(٣) نفس المصدر ٣/ ٨٢.

٨٧- وعزّىٰ ابن السماك رجلا فقال: عليك بالصبر، فبه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع، واعلم أنه ليست مصيبة إلا ومعها أعظم منها، من طاعة الله فيها أو معصيته بها(١).

٨٨- عَنِ الأصمعي، قَالَ: بلغني أن ابن السّمّاك، قَالَ للفضل ابن يحيىٰ وقد سأله رجل حاجة، إن هذا لم يصن وجهه عَنْ مسألته إياك، فأكرم وجهك عَنْ ردّك إياه، فقضىٰ حاجته(٢).

٨٩- وقال: يدرك النّمّام بنميمته ما لا يدرك الساحر بسحره(٣).

٩٠- وقال: لولا ثلاثٌ لم يقع حيف، ولم يسل سيف، لقمةٌ أسوغ من لقمة، ووجه أصبح من وجه، وسلك أنعم من سلك، وليس كل أحد له هذه القوة، ولا فيه هذه المنة والإنسان بشر،

(١) نفس المصدر ٣/ ٢٥٥.

(٢) الأمالي للقالي ٢/ ١٧٢.

(٣)الإمتاع والمؤانسة صـ٢٤١.

وبنيته متهافتة وطينته منتشرة، وله عادةٌ طالبة، وحاجةٌ هاتكة، ونفسٌ جموح، وعين طموح، وعقل طفيف، ورأي ضعيف، يهفو لأوّل ريح، ويستخيل لأوّل بارق، هذا إذا تخلّص من قرناء السوء، وسلم من سوارق العقل، وكان له سلطان علىٰ نفسه، وقهر لشهواته، وقمع لهوائجه، وقبول من ناصحه، وتهيّؤ في سعيه، وتبوّء في معان حظّه، وائتمام بسعادته، واستبصار في طلب ما عند ربه، واستنصاف من هواه المضلّ لعقله المرشد، هذا قليل وصعب ولو قلت معدوم أو محال في هذا الزمن العسير والدهر الفاسد، لما خفت عائقا يعوقني، ولا حسودا يردّ قولي[١].

٩١- وقال: أفضل العبادة الإمساك عن المعصية والوقوف عند الشبهة[٢].

(١) المصدر السابق صـ٤٠، والبصائر والذخائر ١/ ١٧٠.

(٢) البصائر والذخائر ١/ ٩٣.

٩٢- وقال: الكمال في خمس: ألا يعيب الرجل أحداً بعيب فيه مثله حتىٰ يصلح ذلك العيب من نفسه، فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب واحد حتىٰ يهجم عليه آخر، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس.

والثانية: ألا يطلق لسانه ويده حتىٰ يعلم أفي طاعة أو معصية.

والثالثة: ألا يلتمس من الناس إلا مثلما يعطيهم من نفسه. والرابعة: أن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم وتوفيتهم حقوقهم.

والخامسة: أن ينفق الفضل من ماله ويمسك الفضل من حاله[1].

٩٣- قال ابن السماك: الغرباء في الدنيا الذين يصلحون إذا افسد الناس، كأننا عما يراد بنا نيام.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٣.

العيش حلو الدر مر الفطام.

يغيب المرء في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، وقد فارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غني عنا خلف، وفقير إلىٰ ما قدم[1].

٩٤- كتب ابن السماك إلىٰ عمرو بن بانة: إن الدهر قد كلح فجرح، وطمح فطفح، فأفسد ما أصلح، فإن لم تعن عليه فضح[2].

٩٥- وقال في دعائه: اللهم أصلحني قبل الموت، وارحمني عند الموت، واغفر لي بعد الموت[3].

٩٦- وقال: عجباً للفتىٰ المترف الذي تعود النعيم في الدنيا، والطعام الطيب، والمركب الوطيء، والمنزل الواسع، كيف لا

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ٥/ ١٨٥.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٢٥.

يعمل ها هنا مخافة أن يفوته ذاك في الآخرة، وعجبًا للفقير المجهود الذي لا يقدر من الدنيا على حاجته كيف لا يعمل رجاء أن يذهب إلى نعيم وروح ويستريح مما هو فيه[(١)].

٩٧- وقال: وجدت الدنيا كحلم نائم، وبرقٍ لامع، وفيءٍ زائل[(٢)].

٩٨- وقال: قال ابن السّمّاك: ما المشتار الجنيّ، مع الرّازقيّ الشهيّ، بأحبّ إلى الفاجر الشقيّ، من أن يغتاب المؤمن التقيّ[(٣)].

٩٨- قال ابن السّمّاك: أهل القبور على الاختبار، وأهل الدّور على الاضطرار والانتظار، فأمّا أهل القبور فندموا على ما قدّموا،

---

(١) المصدر السابق ٩/ ٧١.

(٢) المصدر السابق ٧/ ١٤٨.

(٣) المصدر السابق ٨/ ٤٧.

وأمّا أهل الدّور فيقتتلون علىٰ ما عليه أهل القبور ندموا، فلا هؤلاء إلىٰ هؤلاء يوجعون، ولا هؤلاء بهؤلاء يعتبرون(١).

٩٩- وقال: من لم يتحرز من عقله بعقله، هلك من قبل عقله(٢).

١٠٠- وقال: الحسد أم الطبائع، فمن ثم وكل بالأقرب فالأقرب، واعلم أن العدو يعود بالملاطفة صديقـًا، والظالم بالإنصاف(٣).

١٠١- وقال: دع الْيَمين لله إجلالاً، وَلِلنَّاسِ جمالاً، وَاعْلَم أَن الْعَادَات قاهرات، فَمن اعْتَادَ شَيْئا فِي سره فضحه فِي عَلَانِيَته(٤).

(١) المصدر السابق ٨/ ١٢٤.

(٢) المصدر السابق ٩/ ١٥٧.

(٣) الصداقة والصديق صـ٢٩٦.

(٤) نثر الدر في المحاضرات لأبي سعد الآبي ٤/ ١٤٦.

١٠٢- وقال: إِن من النَّاس نَاسا غرهم السّتْر، وفتنهم الثَّنَاء. فَلَا يغلبن جهل غَيْرك بك علمك بِنَفْسِك[١].

١٠٣- وقال: قليل من توفيق، أحب إلىٰ من كثير من عمل[٢].

١٠٤- وقال: إن الله تعالىٰ أنزل سورة جعلها عوذة لخلقه من صنوف الشر فلما انتهىٰ إلىٰ الإعاذة من الحسد جعلها خاتما إذ لم يكن بعده في الشر نهاية، الحسد أوّل ذنب عصىٰ الله به في السماء والأرض[٣].

١٠٥- وقال: يا أهل السوق سوقكم كاسد وبيعكم فاسد وجاركم حاسد ومأواكم النار[٤].

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٥١.

(٢) بهجة المجالس صـ٢٤٩.

(٣) محاضرات الأدباء ١/ ٣١٢.

(٤) المصدر السابق ١/ ٥٤٦.

١٠٦- وقال: إن الله أمهلهم حتىٰ كأنما أهملهم ولقد ستر حتىٰ كأنه غفر[١].

١٠٧- "كَانَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَجْلِسُ فِي مَجْلِسِ ابْنِ السَّمَّاكِ فَكَانَ يُطِيلُ السُّكُوتَ.

فَقَالَ لَهُ: ابْنُ السَّمَّاكِ ذَاتَ يَوْمٍ: يَا فَتَىٰ أَلَا تَخُوضَ فِيمَا يَخُوضُ فِيهِ الْقَوْمُ مِنَ الْحَدِيثِ؟

فَقَالَ: إِنَّمَا قَعَدْتُ لِأَسْمَعُ وَأَنْصُتَ لِأَفْهَمَ وَمَا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ لِغَيْرِ اللهِ فَعَاقَبَتُهُ النَّدَمُ.

فَقَالَ: خَرَجْتَ وَاللهِ مِنْ مَعْدِنٍ "[٢]

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٢٣.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٩.

مواعظه للرشيد[١]

(١) هو هارون أمير المؤمنين الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أبو جعفر، ولد بالري، واستخلف بعد وفاة أخيه موسىٰ الهادي.

ولد بالري لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمسين ومائة، وقال ابن أبي الدنيا: ولد هارون سنة تسع وأربعين ومائة، وكان أبيض، طويلا، مسمنا، جميلا، قد وخطه الشيب، وكان يحج سنة، ويغزو سنة، وحكي عن بعض أصحابه أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلىٰ أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق في كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج في كل سنة ثلاث مائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الظاهرة، وكان يقتفي أخلاق المنصور ويعمل بها إلا في العطايا والجوائز، فإنه كان أسنىٰ الناس عطية ابتداء وسؤالا، وكان لا تضيع عنده يد ولا عارفة، وكان لا يؤخر عطاءه، ولا يمنع عطاء اليوم من عطاء غد، وكان يحب الفقه والفقهاء، ويميل إلىٰ العلماء، ويحب الشعر والشعراء، ويعظم في صدره الأدب والأدباء، وكان يكره المراء في الدين والجدال، ويقول: إنه لخليق ألا ينتج خيرا، وكان يصغىٰ إلىٰ المديح ويحبه، ويجزل عليه العطاء، لا سيما إذا كان من شاعر فصيح مجيد.

كثرت مواعظ ابن السماك لهارون الرشيد ما حدا بالدكتور شوقي ضيف أن ينعته بـ "واعظ الرشيد"[1]، جاعلًا إياه ثالث ثلاثة من أعلام خطباء الوعظ في العصر العباسي الأول[2].

وقال منصور بن عمار: ما رأيت أغزر دمعا عند الذكر من ثلاثة: فضيل بن عياض، وأبو عبد الرحمن الزاهد، وهارون الرشيد . وقال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره، وزراؤه: البرامكة، وقاضيه: القاضي أبو يوسف، وشاعره: مروان بن أبي حفصة، ونديمه: العباس بن محمد عم والده، وحاجبه: الفضل بن الربيع أتيه الناس، ومغنيه: إبراهيم الموصلي، وزوجته: زبيدة.

قال الذهبي: وكان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج، وجهاد، وغزو، وشجاعة، ورأي .... محاسنه كثيرة، وله أخبار شائعة في اللهو، واللذات، والغناء، الله يسمح له. ومات الرشيد بطوس لغرة جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث وتسعين ومائة، وكان عمره خمسا وأربعين سنة، وخلافته ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوما ، ودفن بقرية، يقال لها: سناباذ، وصلىٰ عليه ابنه صالح.

ينظر: تاريخ بغداد ١٦/ ٩، والسير للذهبي ٩/ ٢٨٦

(١) تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف صـ٤٥٣.

(٢) وهم: عمرو بن عبيد واعظ المنصور، وصالح عبد الجليل واعظ المهدي، وابن السماك واعظ الرشيد.

ومن مواعظه للرشيد:

١٠٨- بعث هارون أمير المؤمنين إلىٰ محمد ابن السماك في آخر شعبان فأحضره، فقال له يحيىٰ بن خالد: أتدري لم بعث إليك أمير المؤمنين؟ قال: لا أدري، قال له يحيىٰ بن خالد: بعث لما بلغه عنك من حسن دعائك للخاصة والعامة، فقال له ابن السماك: أما ما بلغ أمير المؤمنين عني من ذلك فبستر الله الذي ستره علي، ولولا ستره لم يبق لنا ثناء ولا التقاء علىٰ مودة، فالستر هو الذي أجلسني بين يديك يا أمير المؤمنين، إني، والله، ما رأيت وجهًا أحسن من وجهك، فلا تحرق وجهك بالنار، قال: فبكىٰ هارون بكاء شديدا، ثم دعا بماء فاستسقىٰ، فأتىٰ بقدح فيه ماء، فقال: يا أمير المؤمنين، أكلمك بكملة قبل أن تشرب هذا الماء؟ قال: قل ما أحببت، قال: يا أمير المؤمنين، لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتىٰ تصل إليك؟ فقال: نعم، قال: فاشرب ريا، بارك الله فيك، فلما

فرغ من شربه، قال له: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك بالدنيا وما فيها؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه؟ قال: فبكىٰ هارون واشتد بكاؤه.

قال: فقال يحيىٰ بن خالد: يابن السماك قد آذيت أمير المؤمنين، فقال له: وأنت يا يحيىٰ فلا يغرنك رفاهية العيش ولينه(١).

١٠٩- دَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَىٰ الرَّشِيدِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَقَامًا وَإِنَّ لَكَ مِنْ مَقَامِكَ مُنْصَرَفًا. فَانْظُرْ إِلَىٰ أَيْنَ مُنْصَرفُكَ، إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوْ إِلَىٰ النَّارِ. فَبَكَىٰ هَارُونُ حَتَّىٰ كَاد يَمُوت(٢).

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٧.

(٢) القصاص والمذكرين صـ٢٥٣، والمنتظم ٩/ ٨٦.

١١٠- ودخل ابن السماك على هارون فقال: "يا أمير المؤمنين، تواضعك في شرفك أشرف من شرفك"[١].

١١١- هارون الرشيد يحلف أنه من أهل الجنة

كان هارون الرشيد قد حلف أنه من أهل الجنة، فاستفتى العلماء فلم يفته أحد بأنه من أهلها فقيل له عن ابن السماك المذكور، فاستحضره وسأله، فقال له هل قدر أمير المؤمنين على معصية فتركها خوفا من الله تعالى فقال: نعم، كان لبعض ألزمي جارية فهويتها فتركها خوفا من الله تعالى فقال: نعم، كان لبعض ألزمي جارية فهويتها وأنا إذ ذاك شاب، ثم إني ظفرت بها مرة، وعزمت على ارتكاب الفاحشة معها، ثم إني فكرت في النار وهولها وأن الزنا من الكبائر، فأشفقت من ذلك، وكففت عن

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٩/ ٥١٥.

الجارية مخافة من الله تعالىٰ، فقال له ابن السماك: أبشر يا أمير المؤمنين فإنك من أهل الجنة، فقال هارون: ومن أين لك هذا فقال: من قوله تعالىٰ **"وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"** [النازعات:٤٠]- فسر هارون بذلك[1].

قال ابن العماد في شذرات الذهب[2]: قال اليافعيّ: وإنما المراد بالآية استمرار الخوف إلىٰ الموت.

وقال الفقيه حسين: استدلال ابن السّمّاك صحيح، لأن الظّاهر أن كل مسلم يدخلها، وإنما الإشكال لو قال: يدخلها دون مجازاة، وغاية ما فيه الشك والحنث لا يقع به، والله أعلم. انتهىٰ.

قلت (أي ابن العماد): وما قاله الفقيه حسين جار علىٰ القواعد الفقهية لعدم تحقّق أنه من غير أهلها، والله أعلم.

---

(١) وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٢.

(٢) شذرات الذهب ٢/ ٣٧٧.

١١٢- قَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: بَعَثَ إِلَيَّ هَارُونُ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ إِلَىٰ بَابِ الْقَصْرِ أَخَذَنِي حَارِسَانِ، فَأَسْرَعَا بِي إِلَىٰ الْقَصْرِ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَىٰ صَحْنِ الْقَصْرِ لَقِيَنِي خُصْيَانِ ضَخْمَانِ، فَأَخَذَانِي مِنَ الْحَارِسَيْنِ فَأَسْرَعَا بِي إِلَىٰ قَاعَةِ الْقَصْرِ حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا إِلَىٰ بَابِ الْبَهْوِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا هَارُونُ: ارْفُقَا بِالشَّيْخِ، فَلَمَّا وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا مَرَّ بِي يَوْمٌ مُنْذُ وَلَدَتْنِي أُمِّي أَنَا فِيهِ أَتْعَبُ مِنْ يَوْمِي هَذَا، فَاتَّقِ اللهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَقَامًا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْتَ فِيهِ أَذَلُّ مِنْ مَقَامِي هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَاتَّقِ اللهَ فِي خَلْقِهِ، وَاحْفَظْ مُحَمَّدًا فِي أُمَّتِهِ، وانْصَحْ نَفْسَكَ فِي رَعِيَّتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ آخِذٌ سَطَوَاتِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَهْلِ مَعَاصِيهِ"

قَالَ: فَاضْطَرَبَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ عَلَىٰ مُصَلًّىٰ بَيْنَ يَدَيْ فِرَاشِهِ.

فَقُلْتُ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا أَوَّلُ الصِّفَةِ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ ذُلَّ الْمُعَايَنَةِ؟"

قَالَ: فَكَادَتْ نَفْسُهُ تَخْرُجُ، وَكَانَ يَحْيَىٰ بْنُ خَالِدٍ إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَقَالَ لِلْخُصْيَيْنِ: أَخْرِجُوهُ فَقَدْ أَبْكَىٰ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللهُ: لَقَدْ أَبْلَغَ[1].

١١٣- ودَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَىٰ هَارُونَ يَعْنِي الرَّشِيدَ، فَقَالَ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْعَلْ أَحَدًا فَوْقَكَ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَطْوَعَ مِنْكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2].

١١٤- عن ابن السماك قال : لما طلبني هارون الرشيد قال : تكلم وادع فدعوت بدعاء أعجبه وقلت في دعائي: اللهم إنك قلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٧] اللهم إنا نقسم بالله جهد أيماننا لتبعثن من يموت

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٩/ ٥١٣.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٩/ ٥١٤.

أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان واحد؟ و هارون يبكي[1].

١١٥- دَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَىٰ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَقَالَ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ: «مَا أَعْجَبَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، كَيْفَ غَلَبَ عَلَيْنَا؟ وَأَعْجِبْ مِمَّا نَصِيرُ إِلَيْهِ كَيْفَ غَفْلَتُنَا عَنْهُ؟ عَجَبٌ لِصَغِيرٍ حَقِيرٍ إِلَىٰ الْفَنَاءِ يَصِيرُ غَلَبَ عَلَىٰ كَثِيرٍ طَوِيلٍ دَائِمٍ غَيْرِ زَائِلٍ»[2].

١١٦- قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمَّاكِ فِي مَجْلِسٍ حَضَرَهُ فِيهِ الرَّشِيدُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَصَلَّىٰ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا يُسَاوِي أَلْفٌ مِنَ الْخَلَفِ وَاحِدًا مِنَ السَّلَفِ بَيْنَ الْخَلَفِ خَلْفٌ بَيْنَهُمُ السَّلَفُ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آمَنُوا مِنْ خَوْفِ رَبِّهِمْ وَأَمَنَتْ آبَاؤُنَا وَأَجْدَادُنَا مِنْ خَوْفِ أَسْيَافِهِمْ.

---

(١) التخويف من النار صـ١٩٢.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا صـ١٤٨.

يَا أَبَا بَكْرٍ بَلَغَتْ غَايَةَ الِائْتِمَارِ حَيْثُ مَدَحَكَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]

يَا عُمَرُ لَمْ تَكُنْ وَالِيًا إِنَّمَا كُنْتَ وَالِدًا.

يَا عُثْمَانُ قُتِلْتَ مَظْلُومًا وَلَمْ تَزَلْ مَدْفُونًا وَمَا قَوْلُكَ فِيمَنْ وَحَّدَ اللهَ طِفْلًا صَغِيرًا حَتَّىٰ تُوَفَّىٰ كَهْلًا كَبِيرًا فَهَذَا صَاحِبُ الْغَارِ، وَهَذَا إِمَامُ الْأَعْصَارِ، وَهَذَا أَحَدُ الْأَخْيَارِ مَدَحَهُمُ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ، وَأَسْكَنَهُمْ دَارَ الْأَبْرَارِ"(١).

١١٧- دخل ابن السماك علىٰ الرشيد في عقب مرض، فقال: "يا أمير المؤمنين، إن الله ذكرك فاذكره، واطلقك فاشكره"(٢).

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢١٠.

(٢) ربيع الأبرار ٥/ ٤٨.

١١٨- وعظ ابن السماك الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، إنما هو دبيب من سقم، حتىٰ تزل قدم، ويقع ندم، فلا توبة تنال، ولا عثرة تقال، فاتق الله[١].

١١٩- مقام ابن السماك عند الرشيد

دخل عليه، فلما وقف بين يديه قال له: عظني يا ابن السماك وأوجز.

قال: كفىٰ بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [المطففين: ١: ٥].

(١) نفس المصدر ٥/ ٢٧٣.

هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل، فما ظنك بمن أخذه كله! [١].

١٢٠- قال الرشيد لابن السماك: عظني.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنّك تموت وحدك، وتغسل وحدك، وتكفّن وحدك، وتقبر وحدك.

يا أمير المؤمنين. إنما هو دبيب من سَقَم، فيؤخذ بالكَظم، وتزلّ القَدَم، ويقع الفوت والندم، فلا توبة تنال، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال[٢].

وفي الختام أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يبيض به وجوهنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وأن يرزقنا مرافقة النبي صلىٰ الله عليه وسلم في جنات نعيم،

(١) العقد الفريد ٣/ ١٠٨.

(٢) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٧/ ٥٨

واختم دعائي بدعاء ابن السماك "اللَّهُمَّ إِنَّا نحب طَاعَتك وَإِن قَصرنَا، ونكره معصيتك وَإِن ركبناها، اللَّهُمَّ فتفضل علينا بِالْجنَّةِ وَإِن لم نَكُنْ أَهلهَا، وخلصنا من النَّار وَإِن كُنَّا قد استوجبناها"، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات